ترجمات

الإبادة الجماعيّة في غزّة ونهاية الاستعمار الاستيطانيّ

ـ لورينتسو ڤيراتشيني ـ

ترجمة أنس إبراهيم

أيلول 2025

مدى الكرمل
المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية

ترجمات 1

الإبادة الجماعيّة في غزّة ونهاية الاستعمار الاستيطانيّ

لورينتسو ڤيراتشيني

أستاذ التاريخ والسياسة في جامعة سوينبرن للتكنولوجيا في ملبورن. مختص بالتاريخ المقارن للأنظمة الاستعمارية. من مؤلفاته: إسرائيل والمجتمع الاستيطاني، الاستعمار الاستيطاني: لمحة نظرية، الحاضر الاستيطاني الاستعماري، العالم مقلوبًا رأسًا على عقب، الاستعمار: تاريخ عالمي.

نُشِرَت هذه المقالة في مجلّة "The Journal Of Imperial and Commonwealth History"، العدد 53، عام 2025.

حقوق النشر للترجمة العربية محفوظة لمدى الكرمل 2025

مدى الكرمل- المركز العربيّ للدراسات الاجتماعيّة التطبيقيّة

العنوان: شارع هميچنيم 90، حيفا

البريد الإلكترونيّ: mada@mada-research.org

رقم الهاتف: 04-8552035

ملخَّص

كُتِبَتْ ورقة الموقف هذه في نيسان 2025، استجابة لعدّة مداخلات اقتَرَحت مؤخَّرًا أنّ الإبادة الجماعيّة الجارية في غزّة هي نتيجة للاستعمار الاستيطانيّ الإسرائيليّ. إنّ كون الهجوم الإسرائيليّ على الأرض الفلسطينيّة المحاصَرة يحمل طابعًا إباديًّا هو أمر لا جدال فيه، فثمّة أكداس من الأدلّة تدعم هذه الخلاصة. مع ذلك، تُناقِش هذه الورقة ما إذا كان الاستعمار الاستيطانيّ ما يزال أداة تفسيريّة ملائمة، وتقترح أنّ الإبادة الجماعيّة المتكشّفة ليست ذروة الاستعمار الاستيطانيّ الصهيونيّة، بل نهايته.

كلمات مفتاحية: الاستعمار الاستيطاني، الإبادة الجماعية، غزّة، دراسات الاستعمار الاستيطاني.

في مقالة بعنوان "الإبادة الاستعماريّة الاستيطانيّة الإسرائيليّة" نُشِرت في (Journal of Imperial and Commonwealth History) ، يقدّم راز سيچال توصيفًا للمجزرة المستمرّة في قِطاع غزّة بوصفها إبادة جماعيّة مكتملة الأركان؛[1] فهي ليست مجرّد "إبادة جماعيّة محتمَلة"، كما خَلَصت "محكمة العدل الدوليّة" باقتضاب ولكن على نحوٍ حاسم عام 2024، بل هي إبادة جماعيّة تمامًا. يستعرض سيچال الأحداث الميدانيّة، ويعدّد الفظائع الموثَّقة، مشيرًا إلى "خطّة الجنرالات" وَ"الحصار الشامل"، وعمليّات القتل المتعمَّد، مؤكّدًا بشكل قطعيّ وجود النيّة الإباديّة؛ فالتهجير المتكرّر جزء لا يتجزّأ من هذا النمط، وكذلك تظهر اللا أَنْسَنة في السلوك والعلن بلا مواربة.[2]

يستند سيچال إلى شهادات مباشرة، لافتًا النظر إلى حماسة الجنود الإسرائيليّين والضبّاط لتوثيق الأفعال الإباديّة التي يرتكبونها.[3] وهذه حالة استثنائيّة؛ فقد جرت العادة في الإبادات السابقة أن تُبذل الجهود لإخفاء الأدلّة أو طمسها. بَيْدَ أنّ وسائل التواصل الاجتماعيّ تُمكّن عمليّات التوثيق هذه، في حين يلفت سيچال الانتباه إلى الطرق التي من خلالها يقنع الجنود أنفسهم بأنّهم يجسّدون نوايا الحكومة الإسرائيليّة الحاليّة، وإلى ثقتهم في أنّهم سيظلّون في منأًى عن المساءَلة. وهذا الاعتقاد ليس وهمًا؛ فالوزراء والمتحدّثون الرسميّون الإسرائيليّون يعلنون بوضوح لا لبْسَ فيه نيّاتهم الإباديّة. فقد وصف وزير الحرب الإسرائيليّ يوآف چالانت جميع الفلسطينيّين بأنّهم "حيوانات بشريّة"،[4] بينما استدعى بنيامين نتنياهو -كعادته- قصّة العماليق التوراتيّة، داعيًا إلى المحو التامّ لجماعة بشريّة جُعِلَت تمثيلًا للشرّ المطْلَق، وهي قصّة وأمر توراتيّ متجذّران في الخطاب الإسرائيليّ العامّ وسيجري فَهْمها على هذا النحو فورًا.[5] كانت السياسة الإباديّة في ما مضى تتمحور حول التأكُّد من موت جماعة بشريّة بأكملها موتًا بطيئًا؛ وهو ما عُرِف بـ "الغَزْنَنَة" (Gazafication)، أي الإبادة عبْر الاستنزاف.[6] أمّا اليوم، فالتحريض بات مباشرًا، ويترافق مع استعجال مدفوع بالغضب.

1. Segal, "Israeli Settler Colonial Genocide".

2. انظر: Segal, "Israeli Settler Colonial Genocide", 182.

3. Segal, "Israeli Settler Colonial Genocide", 182– 183.

4. مقتبس في: Segal, "Israeli Settler Colonial Genocide", 183.

5. Segal, "Israeli Settler Colonial Genocide", 183.

6. Semerdjian, "Gazafication and Genocide by Attrition", cited in Segal, "Israeli Settler Colonial Genocide", 186.

على نحوٍ مماثل، في حين كان من المفترَض إنكار "النكبة" -لدرجة أنّ الكنيست سنّ قانونًا قبل أعوام يمنع استحضارها- أصبح السياسيّون والمسؤولون الإسرائيليّون يستحضرونها اليوم علنًا.[7] وكان "المؤرّخون الإسرائيليّون الجدد" قد بذلوا جهدًا مضنيًا خلال بحثهم في الأرشيفات الرسميّة لكشف خطط النكبة الأصليّة -بالرغم من أنّه كان بإمكانهم أن يسألوا الفلسطينيّين- ومع ذلك، في بعض الأحيان أنجزوا عملًا صعبًا. لكنْ لا حاجة إلى مزيد من العمل الشاقّ اليوم؛ فكلّ شيء يُبَثّ مباشرة. وفي الوقت الذي يُقصَفُ فيه سكّان غزّة قصفًا -بالمعنى الحرفيّ للقصف-، يُقصف الجمهور مجازًا بأدلّة النيّة الإباديّة.

يُشير سيچال إلى استثنائيّة هذا الوضع؛ موضّحًا أنّ مرتكبي "عنف الدولة" نادرًا ما ينتقلون من الإنكار إلى الاعتراف أثناء "العنف الجاري"، لكن في هذه الحالة حدث ذلك علنًا. يتحدّث عن "الحالة الذهنيّة لمرتكبي العنف"،[8] مشدّدًا أنّ ما نشهده -وهو ما يجب أن يثير القلق والخوف- يعكس نزعة جماعيّة خطيرة سوسيوپاثيّة تكشف عن استعداد إجراميّ صريح. ومن هنا يصل إلى استنتاجه الواضح: إبادة جماعيّة- أي "الاستعمار الاستيطانيّ الإسرائيليّ وقد بلغ ذروته المروّعة".[9] يشكّل الاستعمار الاستيطانيّ، بوصفه شكلًا خاصًّا من الهَيْمَنة، موقعًا مركزيًّا في التحليل التفسيريّ العامّ. وفي سرديّة سيچال، هناك علاقة سببيّة مباشرة بين الإبادة والاستعمار الاستيطانيّ؛ فكلٌّ يُفْضي بالضرورة إلى الآخر.

جاءت مقارَبة سيچال في سياق يشهد نشاطًا أكاديميًّا مكثّفًا، إذ انشغلت أوساط بحثيّة واسعة بتفكيك وتوصيف الهجوم الإسرائيليّ على القِطاع المحاصَر. وقد شكّل الاستعمار الاستيطانيّ الإطار التحليليّ الأبرز الذي ارتكز عليه العديد من الباحثين في عملهم.[10] في مقابلة نشرتها (Journal of Holy land and Palestine Studies)، يوضّح المؤرّخ آڤي شلايم أنّ ما يجري اليوم يختلف نوعيًّا عن الهجمات الإسرائيليّة السابقة، في عنفها وشراستها؛ إذ يقول: "تردّدت طويلًا في وصف ما يحدث بالإبادة الجماعيّة قبل السابع من أكتوبر 2023، لكن ما رجّح الكفّة بالنسبة لي كان قرار إسرائيل وقف دخول جميع أشكال المساعَدات الإنسانيّة إلى غزّة.[11] إنّهم يستخدمون التجويع كسلاح حرب، وذاك يُسمّى إبادة جماعيّة".[12]

---

7. Segal, "Israeli Settler Colonial Genocide", 183.

8. Segal, "Israeli Settler Colonial Genocide", 183.

9. Segal, "Israeli Settler Colonial Genocide", 183.

10. انظر: "Sorek, "Mainstreaming a Genocidal Imagination in Israeli Society.
يَخْلص سوريك إلى أنّ "أثر التفاعل بين السياق الاستيطانيّ الاستعماريّ وقلق المستوطنين، وسلّة الأدوات الثقافيّة للمخيّلة التوراتيّة معقَّد"، لكن "التحليل الذي أقدّمه هنا يولي السياق الاستيطانيّ الاستعماريّ الأهمّيّة العظمى، إذ هو الذي يُشكّل العنصرَيْن الآخَرَيْن". انظر كذلك بشارة: "Settler Colonialism Rebranded" وزالوا: "The Problem with Empathy". في هذه المداخلة يعبّر "زالوا" عن أسفه لأنّ مارن جاي أخفق في أخذ الاستعمار الاستيطانيّ بالاعتبار حين دعا إلى "التعاطف"، وللردّ المقابل لجاي، انظر:
"Jay, "Anti-Empathy and the Mirage of a Secular Bi-National State Solution". في هذه المداخلة، أغفل جاي الاستعمار الاستيطانيّ وحرّف تمثيله في ردّه، وهو ما يبرهن على وجهة نظر زالوا. انظر أيضًا:
"Shaw, "Gaza and the Structure of Genocide in Palestine"; LeVine and Cheyfitz, "Israel, Palestine, and the Poetics of Genocide Revisited".
يعترف شو بوجود الإبادة الجماعيّة، لكنّه يقدّم في الصدارة الفوارق الفاصلة بين الصهيونيّة ومشاريع الاستعمار الاستيطانيّ الأخرى، في ما يُبرز كلّ من تشيڤيتز وليڤين البُنى الإباديّة الطويلة الأمد المرتبطة بالهيمنة الإسرائيليّة على الحياة الفلسطينيّة.

11. Abu Odeh and Dibas, "Zionist Settler-Colonialism and the Logic of Genocide in Gaza", 19.

12. Abu Odeh and Dibas, "Zionist Settler-Colonialism and the Logic of Genocide in Gaza", 19.

يشير شلايم إلى أنّ الاستعمار الاستيطانيّ مستمرّ، لكنّه يميّز بينه وبين الطابع غير المسبوق للإبادة الجماعيّة الجارية في غزّة، قائلًا: "إسرائيل تمطر غزّة موتًا ودمارًا على نطاق لم نشهده من قبل. ما يحدث اليوم هو إبادة جماعيّة في غزّة، بالتوازي مع تكثيف لمشروع التطهير العِرْقيّ في الضفّة الغربيّة تحت ظلال هذه الحرب".[13] وكمثل سيچال، يرتكز شلايم إلى الاستعمار الاستيطانيّ في صُلْب تحليله باعتباره نمطًا خاصًّا من أنماط الهيمنة، مستشهِدًا بنوعم تشومسكي الذي اعتبر يومًا أنّ "الاستعمار الاستيطانيّ هو الشكل الأكثر تطرُّفًا ووحشيّة من الإمپرياليّة".[14] وبناء على هذا، يمكن اعتبار إطار الاستعمار الاستيطانيّ مركزيًّا لفَهْم الأحداث الجارية، وإن كان شلايم يشير أيضًا إلى بُعد الفصل العنصريّ: "إسرائيل بلا شكّ دولة أپارتهايد، لكن هي كذلك لأنّها دولة استعمار استيطانيّ؛ الاستعمار الاستيطانيّ هو السياق الأهمّ على الإطلاق".[15]

يمضي شلايم ومحاوروه، كما سيچال، في مناقشة ما يسمّونه الحالة الذهنيّة الصهيونيّة بما تحمله من "عُصاب قهريّ، ونزعات تدميريّة، وأشكال ساديّة قمعيّة"، مستحضرين أيضًا مقولة جاكلين روز عن "الصهيونيّة كتحليل نفسيّ";[16] فالمستوطن -في قراءتهم- كائن مضطرب، بل يختار أيضًا أن يظهر مختلًّا. وإذا كانت الصهيونيّة قد رُوِّجَ لها بوصفها مشروعًا علاجيًّا لليهود، فمن الواضح أنّها قد فشلت في أداء هذه المهَمّة.

وكان شلايم، في كتابه "الإبادة الجماعيّة في غزّة"، قد طرح هذه الحجّة بإسهاب وتوثيق دقيق، مبرزًا ما يلي:

"سواء اختار صُنّاع القرار الإسرائيليّون الإفناء أو الترحيل، وسواء أفعلوا ذلك بدافع الردع، أَمْ بدافع الانتقام، أَمْ بدافع الاستيطان، النتيجة العمليّة واحدة: جعل غزّة غير قابلة للحياة إلى الأبد. قرّرت إسرائيل تنفيذ ما وصفه الناطق العسكريّ بِـ"المجزرة التي تقلب قِطاع غزّة رأسًا على عقب فوق رأس سكّانه"، وتحويله -وَفْق تعبير أحد المسؤولين العسكريّين- إلى "مدينة خيام". وقد قال وزير الزراعة آڤي ديختر على نحوٍ صريح: "نحن بصدد إيقاع نكبة بغزّة، وهكذا ستنتهي الأمور". أمّا وزير الدفاع چالانت، فقد صرّح أنّ قائد "حماس" ارتكب خطأ وبذلك حُسِمَ مصير غزّة. كذلك أكّد مسؤول سابق في الإدارة المدنيّة ومستشار أمنيّ لعدد من رؤساء الوزراء الإسرائيليّين أنّه حتّى إن أعادت "حماس" الرهائن الإسرائيليّين، فإنّ "غزّة ستتحوّل إلى كومة من الأنقاض". كذلك صرّح نائب رئيس الإدارة المدنيّة الحاليّ قائلًا: "لن يبقى شيء. إنّ مَنْ يعود إلى هنا لاحقًا، إن عاد، لن يرى سوى أرض محروقة؛ لا منازل، لا زراعة، لا مستقبل لهم". في المقابل، عبّر اللواء الاحتياط چيورا آيلاند -الرئيس الأسبق لمجلس الأمن القوميّ ورئيس شعبة العمليّات في الجيش، وأحيانًا كان مستشارًا لوزير الدفاع چالانت- عن السياسة المتّبَعة بأوضح صورة؛ إذ دعا في سلسلة مقالات ومقابلات إسرائيل إلى "خلق أزمة إنسانيّة في قِطاع غزّة" تدفع سكّانها إلى النزوح، مع تحويل غزّة إلى "مكان غير صالح للعيش على نحوٍ مؤقّت أو دائم"، قائلًا إنّ على إسرائيل فرض حصار "دائم وصارم ومتصاعد"، بالتوازي مع تدميرها للبنْية التحتيّة الصحّيّة والمائيّة على نحوٍ منهجيّ، بحيث تصبح غزّة "مكانًا لا يمكن للإنسان

13. Abu Odeh and Dibas, "Zionist Settler-Colonialism and the Logic of Genocide in Gaza", 26.

14. Abu Odeh and Dibas, "Zionist Settler-Colonialism and the Logic of Genocide in Gaza", 19.

15. Abu Odeh and Dibas, "Zionist Settler-Colonialism and the Logic of Genocide in Gaza", 19.

16. Tayseer Abu Odeh in Abu Odeh and Dibas, "Zionist Settler-Colonialism and the Logic of Genocide in Gaza", 30; Rose, *The Question of Zion*.

العيش فيه"، ليُترك المدنيّون أمام أحد خيارَيْن: "البقاء والموت جوعًا، أو الرحيل".[17]

يستهلّ شلايم فصله باقتباس عن المقرّرة الخاصّة للأمم المتّحدة في الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة، فرانشيسكا ألبانيزي، تقول فيه: "إنّ أفعال إسرائيل مدفوعة بمنطق إباديّ متأصّل في مشروعها الاستعماريّ في فلسطين، وهو ما يشير إلى مأساة متوقَّعة سلفًا".[18] مرّة أخرى، يظهر الاستعمار الاستيطانيّ بوصفه الإطار التفسيريّ الأوسع الذي تتجمّع عنده خيوط هذا التحليل.

يتّفق كلّ هؤلاء الكتّاب على أنّ تهمة "الإبادة الجماعيّة" ذات صلة؛ فالأدلّة متوافرة، لا يمكن تفاديها ولا دحضها. لكن هل استدعاؤهم لإطار الاستعمار الاستيطانيّ مناسب لتفسير الهجوم الحاليّ على غزّة؟ بطريقةٍ ما، أجل؛ فقد غزت الصهيونيّة فلسطين، وبَنَتْ مجتمعًا جديدًا هناك، وهذا الغزو، كالعديد من حالات الغزو المماثل التي وقعت في قارّات أخرى، يُسمَّى استعمارًا استيطانيًّا.[19] الاستعمار الاستيطانيّ هو علاقة هَيْمَنة يصبح فيها طرف مستوطِنًا لأنّه يستولي على أرض الشعوب الأصلانيّة ويمحو وجودها، بينما يصبح طرف آخَر أصلانيًّا لأنّه يخضع لحكم المستوطنين (الصهيونيّة هي استعمار استيطانيّ، والمقاومون الفلسطينيّون هم أصلانيّون- والتساؤل عن المدّة التي تلزم ليتحوّل فيها المستوطن إلى أصلانيّ تشبه التساؤل عن المدّة اللازمة ليستمرّ فيها صاحب مصنع في استغلال العمّال قبل أن يتحوّل إلى پروليتاريّ!). كلّ المحاولات الصهيونيّة لادّعاء الانتماء الأصلانيّ للأرض غير مقْنِعة لكونها تتجاهل العلاقة التعريفيّة الجوهريّة؛ أي علاقة الهَيْمَنة.[20]

لقد كتبت مطوَّلًا خلال العَقدَيْن الماضيَيْن عن إسرائيل بوصفها مجتمعًا استيطانيًّا، وعن الصهيونيّة بوصفها استعمارًا استيطانيًّا، والكيفيّات التي يشكّل فيها التماثل مع المستوطنين أشكالًا عابرة للحدود من التضامن الاستيطانيّ الاستعماريّ.[21] كثيرون قد كتبوا حول هذه القضايا، بطرق أكثر إقناعًا منّي.[22] لكن التطوُّرات التي شهدتها غزّة خلال فترة السنة والنصف الأخيرة قد تشكّل تحدّيًا لهذا الإطار التفسيريّ. وبخلاف المؤلّفين المشار إليهم أعلاه، لا أرى أنّ ما يجري هو ذروة الاستعمار الاستيطانيّ، بل أراه انحرافًا جذريًّا عنه. إنّ عدسة الاستعمار الاستيطانيّ قد لا تكون الأداة التفسيريّة الأكثر ملاءَمةً لفَهْم هذه الإبادة الجماعيّة؛ فالإبادة الجماعيّة هي ما يحدث عندما يفشل الاستعمار الاستيطانيّ.

دراسات الاستعمار الاستيطانيّ: مراقَبة الاندماج الإلغائيّ

ظهر الاستعمار الاستيطانيّ كمقولة تفسيريّة عالميًّا لتقييم تاريخ المجتمعات الاستيطانيّة الاستعماريّة وظروفها الراهنة: أنظمة حكم ذاتيّ تبدو هادئة، ببرلمانات استيطانيّة تشرّع قوانين المستوطنين، ومستوطنون يتمتّعون بحقوق الاستيطان ومستويات معيشة مرفَّهة، مع "روّاد" مسالمين من

17. Shlaim, *Genocide in Gaza*.

18. مقتبس في: Shlaim's *Genocide in Gaza*. انظر أيضًا "Albanese, "Anatomy of a Genocide.

19. Khalidi, *The Hundred Year's War on Palestine*.

20. Pasternak, "On Jews and Indigeneity".

21. Veracini, *Israel and Settler Society*; Veracini, "The Other Shift"; Veracini, "What Can Settler Colonial Studies Offer to an Interpretation of the Conflict in Israel-Palestine?"; Veracini, "Israel-Palestine Through a Settler-Colonial Studies Lens"; Veracini, "Islamophobia, Antisemitism, Zionism"; Veracini, "Germany's Anti-Antisemitic Complex".

22. ثمة اليوم العديد من الأدبيات المعمقة حول فلسطين/ إسرائيل، انظر: "Salamanca, Qato, Rabie and Samour, "Past is Present.

المستوطنين يملأون السرديّات الوطنيّة الاستيطانيّة. في هذه الكِيانات، يُمارَس قمع الأمم الأصلانيّة داخل حدود معترَف بها دوليًّا، وفي الغالب من خلال وسائل بنيويّة للاحتواء والسيطرة.[23] كذلك يجري الاستيلاء على ملْكيّة السكّان الأصلانيّين بصورة أساسيّة من خلال أشكال غير متكافئة من الاستيعاب والإدماج السياسيّ.

إنّ الموت الجماعيّ لا يليق بهذه الكيانات. وذلك أنّ هذه الكيانات تفضّل القلق بشأن "تنعيم وسادة الاحتضار" الخاصّة بِـ"العِرْق الأصليّ"؛ فقد أصبحت أزمنة القتل وراءها. تاريخ العنف ذاك يجب طمسه على نحوٍ دائم، نفيه، إزاحته، إهماله، تبريره، أو حتّى الاعتراف به شريطة تقديمه على أنّه شيء ينتمي إلى ماضٍ بعيد منفصل عن الحاضر الطبيعيّ المطبَّع. في هذه الكيانات، ليس ثمّة "حالة ما بعد استعماريّة"، ولهذا جرى ابتكار أدوات تفسيريّة أخرى. والهدف لم يكن يومًا الإيحاءَ بأنّ ثمّة أشكالًا أخرى من الاستعمار أكثر قبولًا أو أقلّ ضررًا، أو السماحَ لأحد بملاحظة وجود تَراتُبيّة قمعيّة. وقد ظهرت دراسات الشعوب الأصلانيّة عالميًّا منذ ستّينيّات القرن العشرين، لتعيد إلى الواجهة تجارب الشعوب الأصلانيّة التي لم تستسلم بعد، في حين كان يعتقد معظم المستوطنين أنّ هذه الأمم أُقصِيت إلى الأبد ككِيانات سياديّة (وكثيرون منهم لا يزالون يعتقدون ذلك)، غير أنّ النموذج لم يَعُد نموذج "المحو المنجَز".

استنادًا إلى منجَزات دراسات السكّان الأصليّين، بدأت دراسات الاستعمار الاستيطانيّ منذ أواخر التسعينيّات في إعادة قراءة تاريخ المجتمعات الاستيطانيّة وسياساتها الراهنة في ضوء نقديّ جديد. ولهذا النموذج صلة بالوضع في فلسطين/ إسرائيل؛ فقد كان الغزو الصهيونيّ لفلسطين قائمًا في جوهره على تهجير الفلسطينيّين لا على إخضاعهم. فالإخضاع كان -ولا يزال- شرطًا مسبقًا للتهجير، وهذا هو الاستعمار الاستيطانيّ. وفي فلسطين/ إسرائيل أيضًا لا وجود لحالة ما بعد استعماريّة، وكما أنّ ثمّة تاريخًا للاستعمار الاستيطانيّ في فلسطين/ إسرائيل، هناك أيضًا تأريخٌ لـ"الاستعمار الاستيطانيّ" بوصفه الإطار التفسيريّ المناسب لهذه الحالة.

عندما ظهر نموذج الاستعمار الاستيطانيّ، ولا سيّما مع التركيز على "منطق الإزالة"، قدّم عدسة موحّدة؛[24] فبالرغم من تنوُّع التجارب والظروف التاريخيّة، تمكّنت العديد من المكوِّنات الفلسطينيّة -في الشتات، وداخل أراضي الـ 48، وفي القدس والضفّة الغربيّة وغزّة- من صياغة سرديّة موحَّدة، وتفسير الصهيونيّة بوصفها تجلّيًا محلّيًّا لظاهرة عالميّة. وعلى نحوِ ما جرى مع الفلسطينيّين، طُرِدت العديد من الشعوب الأصلانيّة في الأميركيّتَيْن ونيوزيلندا وأستراليا وأماكن أخرى كثيرة من أراضيها، وكانت هدفًا للإزالة. وكما الفلسطينيّين أيضًا، قاومت هذه الشعوب ونجت.

كان هناك لحظتان بارزتان في فَهْم هذا النموذج؛ الأولى عندما كتب الدبلوماسيّ والمفكّر الفلسطينيّ فايز الصايغ عن الاستعمار الاستيطانيّ الصهيونيّ في ستّينيّات القرن الماضي.[25] وقد شدّد على ضرورة أن يفهم الفلسطينيّون خصوصيّة التشكيل الاستعماريّ الذي يواجهونه إذا أرادوا مقاومته بفاعليّة. إنّه استعمار، لكنّه يختلف عن الأشكال الاستعماريّة الأخرى، وهذه الخصوصيّة تتطلّب تعديلًا إستراتيجيًّا.

23. انظر: Veracini, "Constructing "Settler Colonialism"".

24. Wolfe, "Settler Colonialism and the Elimination of the Native".

25. Sayegh, *Zionist Colonialism in Palestine*.

وكما يلاحظ شلايم أيضًا، شبّه الصايغ -وهو يخاطب الأمم المتّحدة عام 1975- الصهيونيّة بِـ"نبض القلب"؛ مشيرًا إلى عمليّتَيْها المتلازمتَيْن المتناغمتَيْن في إيقاع واحد: ضخّ "اليهود" إلى الداخل، وضخّ "الفلسطينيّين" إلى الخارج؛ ولا أستطيع تصوُّر وصف للاستعمار الاستيطانيّ أكثر بلاغة من ذلك.[26]

أمّا الثانية فكانت عندما عَمِلَ المفكّر الماركسيّ ماكسيم رودنسون على دراسة الصهيونيّة بوصفها استعمارًا استيطانيًّا في الستّينيّات، إذ ظهرت نُسخة فرنسيّة من كتاب موجَز في هذا الموضوع عام 1967، وتُرجِمت إلى الإنجليزيّة عام 1973.[27] لكن مقولة "الاستعمار الاستيطانيّ" كأداة تحليليّة نُسِيَت لاحقًا، قبل أن تُعاوِد الظهور في أواخر التسعينيّات وبداية الألفيّة الجديدة، بالتزامن مع تطوُّر "عمليّة أوسلو" ثمّ انهيارها. وذاك ليس مفاجئًا؛ فأُطُر التفسير تظهر وتختفي وَفقًا لجدواها. ومن اللافت أنّ فترة الستّينيّات والتسعينيّات كانت عَقدَيْن ابتغت خلالهما السياساتُ الإسرائيليّة إخضاع الفلسطينيّين على نحوٍ هرميّ أكثر ممّا ابتغت محوهم. لكن التصلُّب المكانيّ للاحتلال عقب الانتفاضة الأولى، والتقسيم الكانتونيّ الذي رافق الانتفاضة الثانية، أدّيا في نهاية المطاف إلى انقلاب في عمليّات إدماج التابع الخاصّة بالاستعمار الاستيطانيّ. وفي الحالتَيْن، كانت المقاومة الفلسطينيّة هي التي فرضت تحوُّلًا في السياسة الصهيونيّة.

لقد أبرزت دراسات الاستعمار الاستيطانيّ، باعتباره نمطًا خاصًّا من الهَيْمَنة، أنّ "تفكيك الاستعمار" -من خلال الاعتراف الدوليّ بالقدرة على الحكم الذاتيّ- لا يعني بالضرورة نهاية العلاقة الاستعماريّة.[28] فقد حقّقت الكِيانات الاستعماريّة استقلالها أحيانًا من خلال الحرب، كما فعلت إسرائيل، وأحيانًا عبْر التفاوض، ومع ذلك استمرّت الشعوب الأصلانيّة التي تعيش داخل هذه الكيانات في الخضوع للحكم الاستعماريّ الاستيطانيّ، كما كان -ولا يزال- حال الفلسطينيّين. وهذا يبدو منطقيًّا جدًّا عند النظر إلى تاريخ الصراع الفلسطينيّ الإسرائيليّ، فقد كان إطار الاستعمار الاستيطانيّ مفيدًا بشكل خاصّ لفَهْم "أوسلو" كلحظة استعماريّة استيطانيّة؛ إذ يمكن النظر إلى "أوسلو" باعتبارها "الحلّ" الاستعماريّ الاستيطانيّ، نوعًا من التفكيك المجازيّ للاستعمار الذي يطبّع الاستعمار الاستيطانيّ وحكْم المستوطنين.[29]

ولأنّني لم أجد ما أقرأه في دراسات الاستعمار الاستيطانيّ حول إسرائيل وفلسطين، كتبت في ذلك أنا بنفسي. وكان ينبغي بعملي على الاستعمار الاستيطانيّ كنمط خاصّ من الهَيْمَنة أن يكون تكامليًّا لا استبداليًّا؛ فالفكرة كانت إدماج معرفة جديدة مع الأدبيّات المتوافرة، والنظر إلى نمطَيِ الهَيْمَنة -الاستعمار والاستعمار الاستيطانيّ- باعتبارهما متشاركَيْن في إنتاج بعضهما البعض جدليًّا عبْر تفاعلاتهما الديناميكيّة. وقد مكّن الالتفات إلى كلّ من الاستعمار والاستعمار الاستيطانيّ من مراقبة الصهيونيّة عبْر تطوُّرها التاريخيّ. لكنّ التزامي بعدسة دراسات الاستعمار الاستيطانيّ ليس مطلقًا، بل هو مشروط بفاعليّتها التفسيريّة؛ فالكِيانات الاستيطانيّة الناجحة تحتفظ دائمًا بإمكانيّة الإنكار المعقول عند الحديث عن الإبادة الجماعيّة؛ بل العكس من ذلك، إذ تنخرط غالبًا في "سياسات الاعتراف" وتروّج لفكرة "المصالحة" الوطنيّة أو الأصلانيّة. وهذه العمليّات، وإن كانت موضع خلاف،

26. مقتبس في: Shlaim, *Genocide in Gaza*.

27. Rodinson, *Israel*.

28. Veracini, *Settler Colonialism*.

29. Tuck and Yang, "Decolonization is Not a Metaphor".

ما يُعرض على الطاولة من خلالها ليس إلّا "تفكيكًا مجازيًّا للاستعمار" مع وعدٍ بتشكيل علاقات أكثر احترامًا بين المستوطنين والمكوِّنات الأصلانيّة- ومن الصعب تصديق ذلك الآن، لكنّ محاولات مشابهة جرت في فلسطين وإسرائيل خلال التسعينيّات. تشكِّلُ هذه السياسات تمثيلًا لسيطرة المستوطنين؛ إذ يأخذ أكثرهم أمانًا فخرًا أخلاقيًّا من خلال التزامه بِـ"سياسات الاعتراف بالسكّان الأصلانيّين". إنّها سياسات منافِقة وقاسية، لكنّها ليست نوبة غضب قاتلة عشوائيّة.

بعد عقود من التقارب مع النموذج العالميّ للاستعمار الاستيطانيّ، ابتعد المجتمع الإسرائيليّ الآن عنه. إنّ الإصرار المستمرّ على رفض أيّ آفاق سياسيّة قابلة للحياة للفلسطينيّين الأصلانيّين يشكّل فشلًا إستراتيجيًّا للاستعمار الصهيونيّ، وهذا الفشل يُضاعف فرص الجماعة الأصلانيّة في إعادة إنتاج نفسها اجتماعيًّا. وعليه، هل ينبغي التفكير في احتمال أن يكون ما نراه اليوم "موت" الاستعمار الاستيطانيّ؟

نهاية الاستعمار الاستيطانيّ

يبدّد الهجوم الإسرائيليّ على غزّة أيّ إمكانيّة لمتابعة مشروع الاستعمار الاستيطانيّ. قبل سنوات عديدة، أشرت في مقالة نُشِرت في "مجلّة الدراسات الفلسطينيّة" إلى إمكانيّة حدوث انزياح عامّ في الممارسة الصهيونيّة بعيدًا عن الاستعمار الاستيطانيّ، والإبادة الجماعيّة الحاليّة تكمل هذا الانزياح.[30] صدمة السابع من أكتوبر 2023 وهَوْلُها سرّعا من وقوعه، وربّما أصبح من غير الممكن العودة إلى الوراء. إنّ الأفق الاستعماريّ الاستيطانيّ المتمثّل في دمج الفلسطينيّين الخاضعين للحكم الإسرائيليّ ضمن موقعٍ تابع قد توقَّفَ الآن. كان هذا هو النهج الذي انتهجته الحكومات الإسرائيليّة المتعاقبة طَوال عقودٍ، إلى أن جاء "فشل" مسار "أوسلو".

لقد عاشت "عمليّة أوسلو" طويلًا بعد موتها في الخيال فقط، ولم يَظهر ما يحلّ محلّها. وفي مواجهة هذا الفشل الإستراتيجيّ للخيار الاستيطانيّ الاستعماريّ، لم يبقَ سوى موجة عنف غير مقيّدة تغذّيها خيالات الإبادة الجماعيّة. على العكس من ذلك، تعتمد الأنظمة الاستيطانيّة الاستعماريّة في المعتاد على العنف البنيويّ. المجتمع الاستيطانيّ الذي يظهر إلى الوجود من قِبَل مشروع استعماريّ استيطانيّ ولم يعد قادرًا على الاستمرار كمجتمع استيطانيّ، ما يحلّ محلّه هو مجتمع استيطانيّ فاشل من غير المرجَّح أن يكون قابلًا للاستدامة على المدى البعيد.

النظام الاستيطانيّ الاستعماريّ الذي يعود إلى أصوله الدمويّة، ويتخلّى عن أشكال القمع البنيويّة، إنّما هو بصدد تدمير نفسه. مؤسَّسات المجتمع الاستيطانيّ الناجح، بما فيها مؤسَّساته الاقتصاديّة، هي مؤسَّسات "شاملة"، وهذا ما يجعلها قادرة على الصمود والنجاح. وقد مُنِحَ ثلاثة مؤرّخين اقتصاديّين جائزة نوبل عام 2024، لأبحاثهم التي حلّلت بأثر رجعيّ قوّة وأداء اقتصادات الكيانات الاستيطانيّة.[31] وصحيح أنّ هؤلاء المؤرّخين يفكّرون في "الشموليّة" بمعنًى حصريّ جدًّا، ولا يضعون

30. Veracini, "The Other Shift". See also Pappé, "The Collapse of Zionism".

31. Acemoglu, Johnson, and Robinson, "The Colonial Origins of Comparative Development".

شعوبَ الدولِ الأصلانيّةَ التي يَدْرسونها في اعتبارهم،[32] لكنّهم يؤكّدون أنّ المؤسَّسات السياسيّة والاقتصاديّة والقضائيّة يجب أن تكون متاحة لجميع القِطاعات الاستيطانيّة، وأنّ هذا الاستيعاب هو ما يميّز المجتمعات الاستيطانيّة عن غيرها من الكِيانات الاستعماريّة، ويتيح لها بيئات مؤسَّساتيّة قادرة على دعم نموّ اقتصاديّ مستدام.

لقد انسجمت إسرائيل مع هذا النموذج طيلة عقود، لكن الأمر لم يعد كذلك. فمع تواصل الهجوم على غزّة والضفّة الغربيّة، في عمليّة متوازية ومتشابكة مع التعبئة الدائمة التي يتطلّبها هذا الهجوم، يجري تهميش مكوّنات يهوديّة واسعة داخل إسرائيل. وأنا لا أرثي خسارتهم، فالأمر لم يكن يتعلّق يومًا بحكم ديمقراطيّ حقيقيّ، لكنّ خضوعهم هو ما تجب ملاحظته. وبالمثل، فإنّ جميع "الديمقراطيّات العِرْقيّة" الاستيطانيّة يجب أن تكون قادرة على منح حصّة لكلّ المستوطنين؛ فمن دون هذه الحصّة، لا يمكن أن يكون هناك جيش من المحاربين المواطنين (Hoplites). تنبغي الإشارة إلى حالات الانهيار الفادح في الانضباط العسكريّ، والعلامات على الإحباط المعنويّ واسعة النطاق. قد تكون إسرائيل بصدد إعادة تشكيل نفسها كَ"إسبارطة" جديدة، لكنّ اقتصادها يتقلّص، ومن غير المرجَّح أن ينتعش بعد انتهاء الهجوم، لأنّ التحوُّل الجاري هو تحوُّل بنيويّ. لقد كان ممكنًا تجاوُزُ الأزمات السابقة التي أعقبت مراحل التصعيد، لكن هذه المرّة من غير المحتمل أن يجري تغيُّر في الحكومة، كما أنّ تآكلَ المعايير الديمقراطيّة واستفحالَ الفساد لن يرتدّا إلى الوراء. ولم يتمكّن الحائزون على جائزة نوبل عام 2024 من العثور على مثال واحد على مثل "ارتداد" إلى الوراء كمثل هذا. إنّ آليّات الضبط والموازنة التي تميّز جميع الكيانات الديمقراطيّة -بما في ذلك تلك الإثنوقراطيّة- يجري الانفصال عنها.

خلال "الثورة الاستيطانيّة" العالميّة، كانت المجتمعات الاستيطانيّة قادرة على إغراق الكيانات الأصلانيّة من خلال الاستعمار الانفجاريّ.[33] كان تدفّق الهجرة لا يهدأ، وعلى مدى عقود طويلة عَمِلَتِ التجربة الإسرائيليّة على استنساخ تجارب المجتمعات الاستيطانيّة الانفجاريّة. لكن الهجوم على غزّة يقوّض إمكانيّة إنجاز الاستعمار الاستيطانيّ عبْر السيطرة الديمچرافيّة. فإسرائيل لم تفشل فقط خلال العقود الأخيرة في جذب موجات جديدة من المهاجرين اليهود، بل إنّ كثيرين منهم يختارون اليوم المغادرة. وقد لا نكون قادرين على إحصائهم بدقّة، لكنّ المغادرين تجاوزوا الوافدين على نحوٍ يشير إلى تحوُّل ديمچرافيّ.[34] الأرقام شديدة الحسّاسيّة، وهي جزئيّة، ومن المرجَّح أنّها أقلّ بكثير من الواقع؛ فالسلطات لا ترغب في سماعها، والمغادرون لا يرغبون في الإفصاح عنها.

من الممكن أيضًا أن تكون اللحظة الإباديّة الراهنة نتيجة إدراك فشل المشروع الاستيطانيّ الاستعماريّ. فقد كانت الوقائع في غزّة هي التي أتاحت اللا أَنْسَنة بلا قيد أو شرط ومكَّنت الخيالات الإباديّة من السيطرة. وفي غزّة أيضًا، تجلّى فشل الطموح الصهيونيّ في استبدال السكّان الأصلانيّين بأوضح صُوَرِهِ.

كان على الصهيونيّة، بوصفها مشروعًا سياسيًّا، أن تواجه الفلسطينيّين دائمًا، لكنّها احتاجت أيضًا أن تقدّم لليهود عرضًا أفضل من الحياة في الشتات. وفي النهاية، خسرت تلك المواجهة الطويلة؛ فالأغلبيّة

32. انظر: Meagher, "Does the Nobel Prize in Economics 2024 Signal a Reversal of Fortunes for Settler Colonialism?"; Azhar, "Daron Acemoglu's or Paul Baran's Prize?".

33. يعود هذا المطلح للمؤرخ النيوزيلندي البارز المتخصص في الاستعمار الاستيطاني العالمي، جيمس بيليتش. انظر: Belich, *Replenishing the Earth*, Part I.

34. Burke, "Israelis Moving to Live in Europe "Rejuvenating" Jewish Communities"; "Israel's Population Growth Slows as Emigration Soars, With 83,000 Leaving in 2024".

من اليهود تعيش في الشتات، والحياة في الشتات تبدو أكثر جاذبيّة من الحياة في ظلّ الإبادة الجماعيّة، والتفوُّق العرْقيّ، والثيوقراطيّة، والظروف المتدهورة، والفساد، وكذلك المؤسَّسات التي أصبحت بلا شكّ مؤسَّسات "إقصائيّة". إذا كانت الصهيونيّة نفيًا للشتات، فإنّ الشتات هو نفي للصهيونيّة. الشتات اليهوديّ في حالة ازدهار، وثمّة شتات إسرائيليّ في طَوْر التشكُّل.[35] ومن الممكن أن يكون لهذا التوجُّه انعكاسات ماليّة كبرى، ستقيّد أكثر قدرةَ إسرائيل على منافسة الحياة في الشتات، وهو أمر أكثر أهمّيّة ممّا تشير إليه الأرقام، لأنّ الذين يرحلون هم تحديدًا الفئة التي تجعل من المجتمع الاستيطانيّ مجتمعًا استيطانيًّا. قد لا يصرّح المغتربون الإسرائيليّون بذلك، ربّما يؤجّلون قرارهم أو يُبقون خياراتهم مفتوحة، في انتظار ما ستَؤُول إليه الأمور، لكن مركز حياتهم ينتقل إلى أماكن أخرى؛ فهم يشترون العقارات، يتأمّلون في احتمالاتهم ووظائفهم ومدارس أبنائهم. كثيرون لم يغادروا بعد، لكنّهم يفكّرون في ذلك بجِدّيّة. ومن قبل، غادر الكثير من سكّان المستعمرات البيض في العالَم الاستعماريّ وذهبوا في "عطل طويلة" خلال الأزمات ولم يعودوا. وإسرائيل كانت قد بدأت بالفعل بالتحوُّل إلى بلد هجرة خارجيّة -وإن كان الاستيطان اليهوديّ القادم إليها يتجاوز في المعتاد المغادرين منها- لكن الهجوم على غزّة سرّع هذه التوجُّهات القائمة أصلًا. ومن العواقب غير المباشرة للإرهاب الذي تمارسه الحكومة الإسرائيليّة ضدّ قِطاع غزّة إفراغُ إسرائيل من سكّانها اليهود بصورة أشدّ فاعليّة ممّا قد يفعله أيّ "إرهاب" فلسطينيّ. أيًّا تكن الإجراءات التي تتّخذها الحكومة الإسرائيليّة الحاليّة، فإنّ المجتمع الاستيطانيّ يبدو وكأنّه يتعرّض لأزمة قلبيّة.

أخيرًا، لا بدّ للمجتمعات الاستيطانيّة في نهاية المطاف من الوصول إلى حالة من الاستقلال الذاتيّ؛ فهي تعتمد في البداية على الدعم الخارجيّ، لكنّها بمرور الوقت تُحرّر نفسها إستراتيجيًّا منه. وقد اتّبعت إسرائيل هذا النمط الاستيطانيّ الاستعماريّ، لكن الهجوم على غزّة يعيد تشكيل علاقتها مع داعميها الخارجيّين. الدعم الخارجيّ لم يضعف يومًا، وهو لا يضعف الآن. يمكن للحكومة الإسرائيليّة التعويل على الدعم الأمريكيّ والأوروبيّ لإبادة غزّة، لكنْ هذه المساعَدة تُضعف استقلالها الإستراتيجيّ، لأنّها باتت ضروريّة بالمطلق بعد أن كانت في السابق أقلّ أهمّيّة. تعتمد إسرائيل الآن على الغطاء الدبلوماسيّ والإستراتيجيّ الخارجيّ أكثر من أيّ وقت مضى، ومثل هذا الاعتماد يشكّل نوعًا من "إعادة الاستعمار" الذي سيعرّض المشروع الاستيطانيّ لمَخاطر كبرى على المدى البعيد.[36] فضلًا عن هذا، ثمّة مؤشّرات إلى أنّ الشركاء الإستراتيجيّين أقلّ موثوقيّة ممّا كانوا عليه في الماضي، وأنّ هَيْمَنَتهم العالميّة ربّما تكون في حالة تراجُع. صحيح أنّ نطاق السيطرة الإسرائيليّة قد اتّسع قليلًا، لكن المظاهر قد تكون خادعة. وذلك أنّ التركيز على مَنْ يسيطر على شريط إضافيّ من أرض متنازَع عليها قد يكون مضلِّلًا؛ فالقوى الاستعماريّة غالبًا ما تربح كلّ معركة عسكريّة، وتحتفل مع داعميها، وتُحصي كم "متمرّدًا" قُضِيَ عليهم، إلّا أنّ حصيلة القتلى هنا تشمل بعض المقاتلين، ولكن ثمّة عدد أكبر بكثير هم من القتلى المدنيّين الأبرياء. ومن ثَمّ يجدون أنفسهم، وهم ينتصرون، أمام مشهد جيوسياسيّ تغيَّرَ على نحوٍ لا رجعة فيه ضدّهم.

العنف الاستيطانيّ الاستعماريّ بنْيةٌ لا حدثٌ؛[37] وهذه العبارة المتداوَلة ينبغي أن تُفهَم في سياق

35. Staetsky, "Israelis Abroad".

36. مرة أخرى، يعود هذا المصطلح لبيليتش، انظر: Belich, *Replenishing the Earth*, Part III.

37. Wolfe, *Settler Colonialism and the Transformation of Anthropology*, 2.

نشأتها. فقد نشأت دراسات الاستعمار الاستيطانيّ لتحليل العنف البنيويّ في المناطق التي تظهر وكأنّها في حالة سلام، وقد أُخفِيَ وجود السكّان الأصلانيّين فيها أو أُقنِعَ العالم بزوالهم. إنّ الاستعمار بطبيعته علاقة عنفيّة؛ إذ إنّ العنف فيه لا مفرّ منه. أحيانًا يكون بنيويًّا، أحيانًا يُطلَقُ بلا قيود -وإن كان العنفان مرتبطَيْن جدليًّا ويتطوّران معًا- فالمستعمِر والمستعمَر مرتبطان في علاقةٍ جوهرُها العنف. في المعتاد، تركّز دراسات الاستعمار الاستيطانيّ على العنف البنيويّ، أمّا "الجَزّ المتكرّر للعشب"، فإلى جانب كونه إشكاليًّا أخلاقيًّا، فإنّه أيضًا سياسة فاشلة حتّى وَفقًا لمنطقها الداخليّ. وهكذا تصبح عدسة الاستعمار الاستيطانيّ أقلّ وأقلّ قدرة على التفسير.

الخاتمة

يمكن إبقاء الاستعمار الاستيطانيّ والإبادة الجماعيّة منفصلَيْن تحليليًّا؛ فقد خَلَصَ پاتريك وولف إلى أنّه "وإن التقيا -أي وإن تجلّى منطق الإزالة في الاستعمار الاستيطانيّ في الإبادة الجماعيّة- ينبغي التمييز بينهما"، مؤكّدًا أنّ "الاستعمار الاستيطانيّ إزاليّ في جوهره، لكنّه ليس إباديًّا بالضرورة".[38] وفي ما يتعلّق بغزّة، يبدو هذا الطرح مقنعًا بصورة خاصّة، إذ إنّ الإبادة الجماعيّة تقوّض شروط إمكانيّة الاستعمار الاستيطانيّ في ذاته؛ فأقوى الأنظمة الاستيطانيّة لا تحتاج إلى ارتكاب إبادة جماعيّة؛ فسياسات الاعتراف، وحقوق الأرض الأصليّة، وحتّى أشكال السيادة الأصليّة الخاضعة، أكثر استقرارًا بكثير. كما أنّ التركيز على الاستعمار الاستيطانيّ البنيويّ الطويل الأمد لا يُبرِز واقع الانقسامات العميقة والمتزايدة داخل المجتمع الإسرائيليّ.

وبالمثل، يمكن النظر إلى الأپارتهايد والاستعمار الاستيطانيّ كأنماط هَيْمَنة متمايزة، بل ربّما متعارضة كذلك. يُفهَمُ الاستعمار الاستيطانيّ من خلال منطق الإزالة، لكنّ الإزالة المتصوَّرة مؤجَّلة إلى زمن آخَر في إطار تنبّؤ واثق من عدم وجود علاقة أصلًا ما بين السكّان الأصلانيّين والمستوطنين مستقبَلًا. في زمن كهذا لن يُوجَدَ الأپارتهايد؛ ففي الاستعمار الاستيطانيّ يجد الأصلانيُّ نفسَه خارج الزمان.[39] كذلك يتّبع الأپارتهايد منطق الإزالة، إلّا أنّ هذا النمط من الهَيْمَنة يسعى إلى الإزالة المقيَّدة مكانيًّا؛ ففي ظلّ الأپارتهايد، ليس هناك علاقة بين المستوطِن والجماعة الأصليّة بما أنّهم معزولون مكانيًّا. في ظلّ الأپارتهايد، يجد الأصلانيّ نفسه خارج المكان، لا خارج الزمان. وفي المخيّلة التي تقوم عليها أنماط الهيمنة هذه، إمّا أن يتشارك الأصلاني الزمن مع المستوطن ولكن ليس المكان في ما بعد، أو يتشارك المكان مع المستوطن في ظل الفصل العنصريّ ولكن ليس الزمان. وهنا تصبح الإبادة الجماعيّة ملجأً عندما يُخترق الزمان أو المكان، وقد اخترق الفلسطينيّون في غزّة الاثنين معًا: تجاوزوا الحدود وضَمِنوا وجودهم في المستقبل بالرغم من الحصار.[40] تظهر الإبادة الجماعيّة عند انهيار هذه التصوُّرات، حين يتمزّق الحصار المكانيّ، وعندما تتلاشى أخيرًا القدرة على تصوُّر اختفاء الجماعة الأصلانيّة في المستقبل. تُمثِّل الإبادة الجماعيّة نهاية الأپارتهايد والاستعمار الاستيطانيّ، حين تحلّ الأفعال الإجراميّة محلّ تخيُّلات وخطابات اللا أَنْسَنَة.

38. Wolfe, "*Settler Colonialism and the Elimination of the Native*", 387.

39. Bruyneel, "The Afterlives of Terra Nullius".

40. للاطّلاع على أطروحات مُهِمّة حول غزّة كَـ"مدينة استعمار استيطانيّ من دون مستوطنين"، وحول نجاة المدن الأصلانيّة، انظر: Joudah, "Gaza as Site and Method". وقد كُتِبت هذه المداخلة في عام 2020، قبل الكارثة الراهنة.

هي أزمة قلبيّة، أجل، لكنّها أيضًا سلسلة من نوبات الهلع التي تؤدّي إلى الغضب العنيف. يجب محو غزّة، لكن غزّة أيضًا هي المكان الذي يُحتجز فيه أسرى إسرائيليّون حاليًّا. تُشكّل سرديّات الأَسْر إحدى الركائز الأساسيّة لكلّ الأدبيّات الاستعماريّة، وثمّة سبب وجيه لذلك؛ فمسألة "عدم المساس بالمستعمِر" تُعَدّ نقطة ضعف نموذجيّة في كلّ المخيّلات والأيديولوجيّات الاستعماريّة.[41] الأَسْر دائمًا حدث صادم، لكن في سياق الأنظمة الاستعماريّة على وجه الخصوص، يمثّل أَسْر المستعمِر انقلابًا يكشف طبيعة الحكم الاستعماريّ؛ إذ يقود إلى تكشُّف مضاعَف للقلق. ويجب أن تُفسَّر المحاولات المؤسَّساتيّة المتكرّرة لحرمان الأسرى الإسرائيليّين وعائلاتهم من صوت مستقلّ في هذا السياق. فعندما يكون جسد المستعمِر هو المهدَّد أو المقيَّد، يواجه الردّ الاستعماريّ معضلة. فمن ناحية، هناك الحاجة إلى حماية سلامة المستعمِر الجسديّة، فالمبدأ التأسيسيّ لِـ"قانون حكم الاختلاف" الاستعماريّ يعتمد على ذلك.[42] ومن ناحية أخرى، هناك الحاجة إلى استعادة "الردع". إنّ الهدفَيْن متعارضان ولا يمكن السعي إليهما في آن واحد. في الغالب، تستجيب الأنظمة الاستعماريّة بموقف استيعابيّ، فبقاؤها يعتمد على التأكيد العلنيّ أنّ حياة المستعمِرين لا تُقاس بقيمة حياة المستعمَرين. إنّ القتل غير المتكافئ يدعم المنطق الاستعماريّ، وتاريخُ الأنظمة الاستعماريّة مليء بالمجازر العشوائيّة في وجه أيّ عصيان، لكن عندما يتعلّق الأمر بأسرى مستعمِرين، فإنّ المفارَقة تكمن في أنّ التحرير غير المتكافئ هو ما يدعم المنطق الاستعماريّ. في حالة كهذه، قد يُطْلَق سراح عدد كبير جدًّا من الأسرى المستعمَرين مقابل كلّ أسير مستعمِر يُطْلَق سراحه، والتبادل غير المتكافئ هنا يتّسق تمامًا مع العقليّة الاستعماريّة. ومع ذلك، فقد قُصِف كثير من الأسرى الإسرائيليّين حتّى الموت مع آسريهم، وجاعوا مع حرّاسهم، وهو ما يشكّل نفيًا جوهريًّا لأساس الاختلاف الاستعماريّ. وكان ردّ الحكومة الإسرائيليّة أنّ جميع الأرواح بلا معنى، وهو انتهاك صريح لأحد المبادئ الأساسيّة للأيديولوجيّات الاستعماريّة، ومن المرجَّح أن تكون التداعيات الطويلة الأمد لمثل هذا الموقف مزعزِعةً للاستقرار.

إنّ تجاهل الإبادة الجماعيّة يُعَدّ تخلّيًا عن المسؤوليّة لا يُغتفر. أمّا تجاهلها عن عمد، فهو فعل مشكوك في صوابيّته الأخلاقيّة. كثيرون يفعلون ذلك، متمنّين ومطالِبين بأن يفعل الآخرون ذلك أيضًا، بل يذهبون إلى حدّ تحريم إدانة الإبادة الجماعيّة أو معارضتها، ويجرّمون مَنْ يجرؤ على دعم الفلسطينيّين. إنّ التنصُّل والتبرير في وجه الإبادة الجماعيّة يشكّلان أعراض نزاهة منقوصة، وأنا لا أرغب في مخاطبة أفراد فقدوا اتّصالهم بالواقع أو بالأخلاق أو بكليهما. الطريقة الوحيدة التي يمْكنهم من خلالها تبرير الأفعال الإسرائيليّة هي اقتناعهم المسبق بأنّ الفلسطينيّين في غزّة ليسوا بشرًا بالكامل. ولن أناقش في ذلك، ولا ينبغي أن تُفهَم مداخلتي هنا بوصفها اقتراحًا لوسائل أكثر فاعليّة لممارسة الاستعمار الاستيطانيّ، أو توجيهًا للصهاينة للعودة إلى أنماط الاستعمار الاستيطانيّ. على العكس من ذلك، أستطيع أن أرى كيف يمكن توظيف مفهوم "الاستعمار الاستيطانيّ" على نحوٍ فعّال في الخطابات والمرافَعات المؤيِّدة للفلسطينيّين، ولا أرغب في توجيه تعليمات لأفراد مكلومين في مواجهة الإبادة الجماعيّة. نحن في حالة حزن. وفي الظروف الراهنة، كلّ أشكال النشاط مرحَّب بها وضروريّة. وإذا استُخدم مصطلح "الاستعمار الاستيطانيّ" مرادفًا لِـ "أقصى شكل وأكثرها وحشيّة من

41. ثمة العديد من الأدبيات المعمقة حول هذه الثيمة، انظر: Pearce, "The Significances of the Captivity Narrative"; Fitzpatrick, "The Figure of Captivity"; Darian-Smith, ""Rescuing" Barbara Thompson and other White Women"; Snader, "The Oriental Captivity Narrative and Early English Fiction"; Colley, "Going Native, Telling Tales"; Simpson, "From White into Red".

42. هذه هي الخلاصة التأسيسيّة التي قدّمتها پارثا تشاتيرجي عن العلاقات الاستعماريّة: Chatterjee, *The Nation and Its Fragments*, 19.

أشكال الإمبرياليّة"، بدلًا من كونه يُشير إلى نمط خاصّ من أنماط الهَيْمَنة، وإذا ساعد في إنهاء الإبادة الجماعيّة أو مجرّد عرقلتها، فلْيَكُنْ.

إنّ دراسات الاستعمار الاستيطانيّ كحقل أكاديميّ تتعرّض للهجوم حاليًّا؛ فبعد السابع من أكتوبر 2023، أصبحت أكثر تداولًا على نطاق واسع في الخطاب العامّ وخارج الأوساط الأكاديميّة، لكن بعد ذلك حدث ردّ فعل مضادّ. فقد نشرت العديد من الصحف والمجلّات (من بينها: "نيويورك تايمز"؛ "تايم"؛ "وول ستريت جورنال"؛ "أتلانتيك") العديد من المقالات النقديّة.[43] كذلك هوجمت دراسات الاستعمار الاستيطانيّ مؤخَّرًا في أوساط أمريكيّة محافِظة مثل "النظريّة العرقيّة النقديّة 2.0"، والدعوة هنا هي إلى حظرها.[44] في الوقت نفسه، وكما ذكرت أعلاه، تُمنح "جائزة نوبل" في العلوم الاقتصاديّة عام 2024 لثلاثة مؤرّخين اقتصاديّين لدفاعهم عن الاستعمار الاستيطانيّ؛ إذًا فالحديث عن الاستعمار الاستيطانيّ مقبول، لكن فقط إذا كان مديحًا.[45] في هذه اللحظة الرجعيّة الراهنة، لا يجب استغراب القمع وإسكات الأصوات، بل تجب مقاومته. مع ذلك، فإنّ الحديث عن الاستعمار الاستيطانيّ عندما تكون أُطُر أخرى أكثر ملاءَمةً يمكن أن يكون مشوَّشًا؛ فالإبادة الجماعيّة تكفي.

الاستعمار الاستيطانيّ إباديّ بطبيعته؛ فالتدمير البطيء المتعمَّد للمجتمعات الأصلانيّة إبادة جماعيّة. لكنّ الإبادة الجماعيّة الجارية حاليًّا في غزّة ليست استعمارًا استيطانيًّا، بل من المرجَّح أنّ الإصرار عليها سيقوّض الشروط ذاتها التي جعلت الاستعمار الاستيطانيّ الإسرائيليّ ممكنًا في الماضي. إنّ الطريقة التي تُنفَّذ من خلالها هذه الإبادة تُشكِّل تحوُّلًا مصيريًّا بعيدًا عن الأنماط الراسخة؛ فهي ليست تكثيفًا لسياسات سابقة، ولا نتيجة لها، بل هي انحراف هذيانيّ كارثيّ. ولا شكّ أنّ الكارثة تُلحَق بالفلسطينيّين، لكن الإبادة الجماعيّة تُنتِج كارثة أيضًا في النظام الاستعماريّ الاستيطانيّ الإسرائيليّ، ومن غير المرجَّح أن يستعيد تماسكه وازدهاره. يرى وليام شاباس أنّ "الإبادة الجماعيّة هي الملاذ الأخير للمُطهِّر العرقيّ المُحبَط".[46] لكن بالنسبة للمستعمِر الاستيطانيّ، تمثّل الإبادة الجماعيّة نقطة اللاعَوْدة. ومع تغيُّر الواقع، يجب أن تتغيّر الأدوات التي نستخدمها.

43. انظر على سبيل المثال: Schuessler, "What is "Settler Colonialism'"; Stephens, "Settler Colonialism"; Feldman, "The New Antisemitism"; Kirsch, "The Ideology Behind Campus Protests is About More Than Israel"; Frum, "Against Guilty History". انظر أيضًا: Kirsch, *On Settler Colonialism*.

44. Lair, "CRT 2.0".

45. Acemoglu, Johnson, and Robinson, "The Colonial Origins of Comparative Development".

46. مقتبس في: Schabas, *Genocide in International Law*, 234; Shlaim, *Genocide in Gaza*.

المراجع

Abu Odeh, Tayseer, and Shahd Dibas. "Zionist Settler-Colonialism and the Logic of Genocide in Gaza: A Conversation with Professor Avi Shlaim". *Journal of Holy Land and Palestine Studies* 24, no. 1 (2025): 17– 36.

Acemoglu, Daron, Simon Johnson, and James A. Robinson. "The Colonial Origins of Comparative Development: An Empirical Investigation". *The American Economic Review* 91, no. 5 (2001): 1369– 1401.

Albanese, Francesca. "Anatomy of a Genocide". United Nations Human Rights Council, 25 March 2024. https://www.ohchr.org/sites/default/files/documents/hrbodies/hrcouncil/sessions-regular/session55/advance-versions/a-hrc-55-73-auv.pdf

Azhar, Shahram. "Daron Acemoglu's or Paul Baran's Prize? A Critique of the 2024 Nobel Prize in Economics". *Human Geography* (2025). https://journals.sagepub.com/doi/full/10.11771194277862413132 67

Belich, James. *Replenishing the Earth*. Oxford: Oxford University Press, 2010.

Bruyneel, Kevin. "The Afterlives of *Terra Nullius*". *Performance Philosophy* 9 (2024): 241– 249.

Bshara, Khaldun. "Settler Colonialism Rebranded: Trump's Gaza Plan and the Capitalist Logic of War". *Journal of Palestine Studies* (2025). https://www.tandfonline.com/doi/abs/10.1080037 7919X.2025.2489264

Burke, Jason. "Israelis Moving to Live in Europe "Rejuvenating" Jewish Communities: Research Shows Dramatic Reversal of Decades of Net Outflow to Israel, as New Arrivals Bring Cultural Influences". *The Guardian*, March 18, 2025. https://www.theguardian.com/world/2025/mar/17/israelis-moving-live-europe-rejuvenating-jewish-communities

Chatterjee, Partha. *The Nation and Its Fragments*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994.

Colley, Linda. "Going Native, Telling Tales: Captivity, Collaborations and Empire". *Past & Present* 168 (2000): 170– 193.

Darian-Smith, Kate. "Rescuing" Barbara Thompson and Other White Women: Captivity Narratives on Australian Frontiers". In *Text, Theory, Space: Land, Literature and History in South Africa and Australia*, edited by Kate Darian-Smith, Liz Gunner, and Sarah Nuttall, 99– 114. London: Routledge, 1996.

Feldman, Noah. "The New Antisemitism". *Time Magazine*, February 27, 2024.

Fitzpatrick, Tara. "The Figure of Captivity: The Cultural Work of the Puritan Captivity Narrative". *American Literary History* 3, no. 1 (1991): 1– 26.

Frum, David. "Against Guilty History: Settler-Colonial Should be a Description, Not an Insult". *The Atlantic,* January 5, 2025.

"Israel's Population Growth Slows as Emigration Soars, With 83,000 Leaving in 2024". *Haaretz*, December 31, 2024.

Jay, Martin. "Anti-Empathy and the Mirage of a Secular Bi-National State Solution: A Response to Nitzan Lebovic and Zahi Zalloua". *Journal of Genocide Research* (2025). doi: 10.1080/14623528.2025.2490325

Joudah, Nour. "Gaza as Site and Method: The Settler Colonial City Without Settlers". *Antipode*, August 24, 2020. https://antipodeonline.org/2020/08/24/gaza-as-site-and-method

Khalidi, Rashid. *The Hundred Years' War on Palestine: A History of Settler Colonialism and Resistance*. Boston: Beacon Books, 2017.

Kirsch, Adam. "The Ideology Behind Campus Protests is About More Than Israel". *Wall Street Journal*, August 16, 2024.
Kirsch, Adam. *On Settler Colonialism: Ideology, Violence, and Justice*. New York: W. W. Norton, 2024.
Lair, Samuel. "CRT 2.0". *American Mind*, January 23, 2025. https://americanmind.org/salvo/crt-2-0
Levine, Mark and Eric, Cheyfitz. "Israel, Palestine, and the Poetics of Genocide Revisited". *Journal of Jenocide Research* (2025). doi: 10.1080/14623528.2025.2482297.
Meagher, Kate. "Does the Nobel Prize in Economics 2024 Signal a Reversal of Fortunes for Settler Colonialism?". LSE Nobel Prize in Economics 2024 Series, 29 October 2024. https://eprints.lse.ac.uk/126368/1/internationaldevelopment_2024_10_29_does-the-nobel-prize-in-economics-2024-signal-a-reversal-of-fortunes-for-settler-colonialism.pdf
Pappé, Ilan. "The Collapse of Zionism". Sidecar, June 24, 2024. https://newleftreview.org/sidecar/posts/the-collapse-of-zionism
Pasternak, Shiri. "On Jews and Indigeneity: What Does Colonialism Have to Do with It?". *Native American and Indigenous Studies* 12, no. 1 (2025): 83– 97.
Pearce, Roy Harvey. "The Significances of the Captivity Narrative". *American Literature* 19, no. 1 (1947): 1– 20.
Rodinson, Maxime. *Israel: A Colonial Settler State*. New York: Monad Press, 1973.
Rose, Jacqueline. *The Question of Zion*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2007.
Salamanca, Jabary, Mezna Qato, Kareem Rabie, and Sobhi Samour. "Past is Present: Settler Colonialism in Palestine". *Settler Colonial Studies* 2, no. 1 (2012): 1– 8.
Sayegh, Fayez A. *Zionist Colonialism in Palestine*. Beirut: Palestine Liberation Organization Research Centre, 1965.
Schabas, William A. *Genocide in International Law: The Crime of Crimes*. Cambridge: Cambridge University Press, 2009.
Schuessler, Jennifer. "What is "Settler Colonialism"?". *The New York Times*, January 22, 2024.
Segal, Raz. "Israeli Settler Colonial Genocide". *The Journal of Imperial and Commonwealth History* 53, no. 1 (2025): 182– 191.
Semerdjian, Elyse. "Gazafication and Genocide by Attrition in Artsakh/Nagorno Karabakh and the Occupied Palestinian Territories". *Journal of Genocide Research* (2024). doi: 10.1080/14623528.2024.2377871.
Shaw, Martin. "Gaza and the Structure of Genocide in Palestine". The Journal of Imperial and Commonwealth History (2025). doi: 10.1080/03086534.2025.2493304.
Shlaim, Avi. *Genocide in Gaza: Israel's Long War on Palestine*. Chapter 1. Belfast: The Irish Pages Press, 2025. https://www.jewishvoiceforlabour.org.uk/article/israels-road-to-genocide
Simpson, Audra. "From White into Red: Captivity Narratives as Alchemies of Race and Citizenship". *American Quarterly* 60, no. 2 (2008): 251– 257.
Snader, Joe. "The Oriental Captivity Narrative and Early English Fiction". *Eighteenth-Century Fiction* 9, no. 3 (1997): 267– 298.
Sorek, Tamir. "Mainstreaming a Genocidal Imagination in Israeli Society: Settler-Colonialism, Settler Anxiety, and Biblical Cues". *Journal of Genocide Research* (2025). doi: 10.1080/14623528.2025.2456321.

Staetsky, Daniel. "Israelis Abroad: Transformation of the Jewish Diaspora?". Institute for Jewish Policy Research, March 17, 2025. https://www.jpr.org.uk/reports/israelis-abroad-transformation-jewish-diaspora

Stephens, Bret. "Settler Colonialism: A Guide for the Sincere". *The New York Times*, February 6, 2024.

Tuck, Eve, and K. Wayne Yang. "Decolonization is Not a Metaphor". *Decolonization: Indigeneity, Education & Society* 1, no. 1 (2012): 1– 40.

Veracini, Lorenzo. "Constructing "Settler Colonialism": Career of a Concept". *Journal of Imperial and Commonwealth History* 41, no. 2 (2013): 313– 333.

Veracini, Lorenzo. "Germany's Anti-Antisemitic Complex and the Question of Settler Colonialism". *Settler Colonial Studies* 14, no. 4 (2024): 540– 557.

Veracini, Lorenzo. "Islamophobia, Antisemitism, Zionism, Settler Colonialism". *Al Muntaqa* 5, no. 1 (2022): 65– 75.

Veracini, Lorenzo. *Israel and Settler Society*. London: Pluto Press, 2006.

Veracini, Lorenzo. "Israel-Palestine Through a Settler-Colonial Studies Lens". *Interventions* 21, no. 4 (2019): 568– 581.

Veracini, Lorenzo. "The Other Shift: Settler Colonialism, Israel and the Occupation". *Journal of Palestine Studies* 42, no. 2 (2013): 26– 42.

Veracini, Lorenzo. *Settler Colonialism: A Theoretical Overview*. Houndmills: Palgrave, 2024 [2010].

Veracini, Lorenzo. "What Can Settler Colonial Studies Offer to an Interpretation of the Conflict in Israel-Palestine?". *Settler Colonial Studies* 5, no. 3 (2015): 268– 271.

Wolfe, Patrick. "Settler Colonialism and the Elimination of the Native". *Journal of Genocide Research* 8, no. 4 (2006): 387– 409.

Wolfe, Patrick. *Settler Colonialism and the Transformation of Anthropology*. London: Cass, 1998.

Zalloua, Zahi. "The Problem with Empathy: A Reply to Martin Jay". *Journal of Genocide Research* (2025). doi: 10.1080/14623528.2025.2463802.

مدى الكرمل
المركز العربي للدراسات
الاجتماعية التطبيقية